عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

مغامرة «الدّائرة الحَمْراء»

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٩١٠/١٩١١/١٩١٣

The Adventure of the Devil's Foot
The Adventure of the Red Circle
The Disappearance of Lady Frances Carfax
The Adventure of the Dying Detective

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

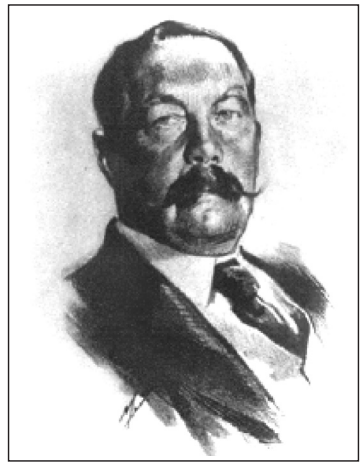

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

ذكريات شيرلوك هولمز
(٣)

لُغز «قَدَم الشَّيْطان»

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠

في ربيع عام ١٨٩٧ ظهرت على شيرلوك هولمز بعض أعراض الانهيار تحت ضغط العمل الشاق، فأوصاه الدكتور مور آغر (وهو من الأطباء المختصين في شارع هارلي) بأن يترك قضاياه جانباً ويخلد إلى الراحة التامة، وإذا لم يفعل فقد يصاب بانهيار كامل.

لم تكن حالة هولمز الصحية من الأمور التي يوليها اهتمامه، فقد اعتاد أن يَفصل نشاطه العقلي عن معاناته البدنية تماماً، ولكن عندما أنذره الطبيب بأنه سيغدو عاجزاً عن ممارسة عمله اقتنع أخيراً بالاستجابة لنصيحته. وهكذا وجدنا نفسَينا في أوائل ربيع ذلك العام في كوخ صغير بالقرب من خليج بولدهو في كورنْوُول، في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة البريطانية.

كانت منطقة رائعة تتلاءم مع مزاج هولمز الكئيب بشكل خاص، وكان كوخنا الصغير الذي طُليت جدرانه باللون الأبيض قائماً في لسان من الأرض العشبية يمتدّ داخل البحر، فكنا نُطلّ من نوافذه على خليج ماوْنت نصف الدائري. وهو خليج مشؤوم طالما وقعت السفن في فخّه، فالرياح الشمالية جعلت منه ملجأ مغرياً للسفن تلجأ إليه أثناء العواصف طلباً للحماية والأمان، ثم فجأة تتحول الرياح تماماً وتهبّ العاصفة هادرة من الجنوب الغربي، فتجرف السفن لتواجه الأمواج

المتكسرة التي ترغي زبداً على الشاطئ الصخري. كان الربان الحاذق هو مَن يبقى بعيداً عن ذلك المكان المشؤوم.

لم تكن البيئة المحيطة بنا على اليابسة أقل كآبة من البيئة البحرية. امتلأت الأراضي الريفية بالمستنقعات القاتمة الجرداء، وفي أماكن متناثرة منها تظهر بعض أبراج الكنائس دالّةً على القرى القديمة. وفي كل موضع من تلك المستنقعات آثار لسكان قدماء ذهبوا وتركوا أنصاباً تذكارية غريبة من الحجارة، وتلالاً تضم رفات الموتى، وسواتر ترابية مثيرة للفضول تشير إلى نزاعات ما قبل التاريخ.

يبدو أن صديقي ارتاح لسحر ذلك المكان وغموضه وأجوائه الغريبة المشحونة بذكريات الماضي، فأمضى الكثير من وقته في نزهات طويلة وتأملات منفردة في أراضي المستنقعات. وقد جذبت انتباهَه اللغةُ الكورنْوُلية القديمة، واخترع نظرية مفادها أن لغة كورنوول القديمة تشبه اللغة الكلدانية التي شاعت في بلاد الرافدين منذ قرون طويلة، وأنها اكتُسبت عن طريق تجارة القصدير التي اشتُهر بها الفينيقيون.

كان قد تلقى لتوّه طرداً من الكتب وأمضى وقته محاولاً إثبات تلك النظرية عندما وجدنا نفسَينا فجأة (مع أسفي الشديد وسروره العارم) وسط قضية جاءت تدق بابنا، حتى ونحن في أرض الأحلام البعيدة تلك! وكانت أكثرَ تشويقاً وأكثر استحواذاً وأكثر غموضاً من تلك القضايا التي دفعتنا للهرب بعيداً عن لندن! فقد قوطع نظام حياتنا الصحي البسيط

الهادئ بعنف وقُذِفْنا وسط سلسلة من الأحداث التي تسببت في هياج عارم، ليس فقط في مقاطعة كورنْوُول، بل في غرب إنكلترا كله. ولعل في القراء مَن يتذكر ما سُمّي وقتها «الرعب الكورنْوُولي»، مع أن ما وصل إلى الصحافة البريطانية حينها كان وصفاً غير دقيق لما حدث. والآن وبعد ثلاثة عشر عاماً سأقصّ على العامة التفاصيلَ الحقيقية لتلك القضية العجيبة.

❊ ❊ ❊

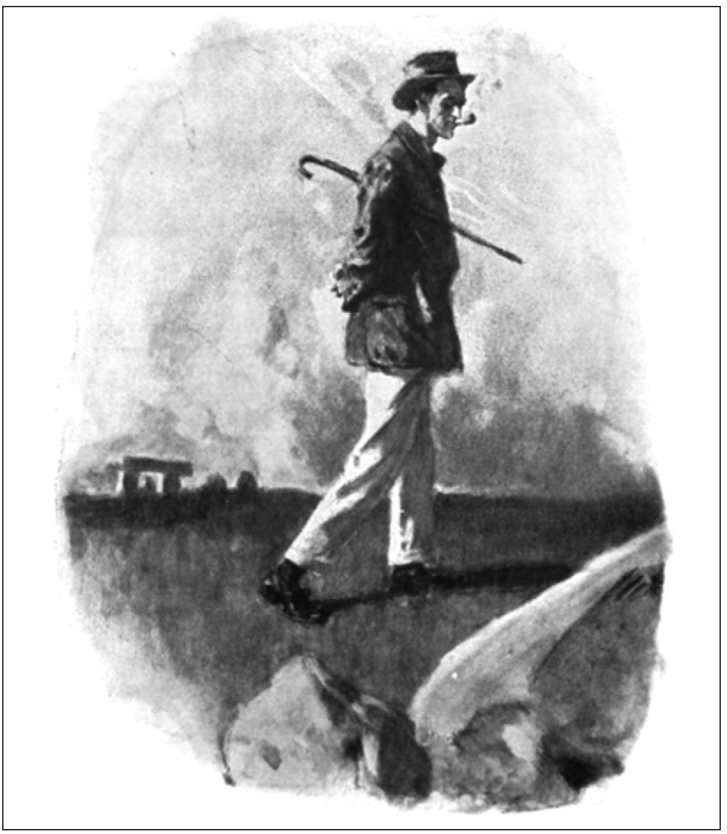

رسم تشارلز جِلبرت هَليدي (١٩١٠) Charles Gilbert Holiday (1910)

قلت قبل قليل إن أبراج الكنائس المتناثرة كانت تحدد أماكن القرى التي انتشرت في ذلك الجزء من كورنوول، وكانت أقربها إلينا هي قرية تريدانِكْ، حيث تجمعت أكواخ لنحو مئتَي ساكن حول كنيسة عتيقة مُغطّاة بالطحالب. كان كاهن الكنيسة، السيد راوندهي، مهتماً بعلم الآثار، وهو الأمر الذي دفع هولمز إلى مصادقته.

كان في نحو الأربعين من عمره، دمث الخلق مهيب المظهر، وبناء على دعوته ذهبنا لتناول الشاي في منزله. هناك أُتيحت لنا الفرصة للتعرف على السيد مورتيمر تريغنيس، وهو شخص واثق بنفسه ساعد الكاهن على زيادة دخله المحدود باستئجار غرفة في منزله الواسع البعيد عن الطريق. وقد رحب الكاهن بتأجيره الغرفة لأنه أعزب، ولم يكن بين الرجلين أي اهتمام مشترك.

كان المستأجر، السيد مورتيمر تريغنيس، شاباً نحيلاً داكن البشرة يضع على عينيه نظارات طبية، وكان في ظهره تقوّس يوحي بتشوه بدني واضح. وأذكر أننا وجدنا القَسّ خلال زيارتنا كثيرَ الثرثرة، بينما بدا المستأجر رجلاً قليل الكلام بشكل غريب، وكان حزين الوجه وميّالاً إلى التأمل الذاتي، وقد جلس متجنباً النظر إلينا وهو يفكر بأموره الخاصة.

كان هذان هما الرجلان اللذان دخلا فجأة غرفة جلوسنا الصغيرة يوم الثلاثاء ١٦ آذار (مارس) بعد الإفطار بوقت قصير، وكنا نستعد لرحلتنا اليومية في أراضي المستنقع. قال

القس بانفعال: لقد وقع أمر مأساوي شديد الغرابة أثناء الليل. إنه أمر غريب لم يسمع به أحد من قبل، وإنه لمن محاسن المصادفات أن يتفق وقوعه مع وجودك هنا في هذا الوقت، لأنك الشخص الأفضل لمواجهة الموقف من بين رجال إنكلترا جميعاً.

نظرت إلى الكاهن المتطفل بعينين لا تحملان الكثير من الود، بينما سحب هولمز غليونه من بين شفتيه وجلس في كرسيّه ككلب صيد عجوز ينتظر صيحة الصياد. ثم أشار بيده إلى الأريكة، فجلس عليها زائرنا المرتجف وإلى جانبه رفيقه القلق. بدا السيد مورتيمر تريغنيس متمالكاً لأعصابه أكثر من القس، وإن أظهر ارتعاشُ يديه النحيلتين وبريقُ عينيه الداكنتين أنه يشاركه التوتر نفسه.

سأله الكاهن رفيقه قائلاً: هل أتحدث أنا أم تتحدث أنت؟

قال هولمز مخاطباً مورتيمر: حسناً، بما أنك أنت الذي اكتشفتَ هذا الأمر (أيّاً كان) على ما يبدو، بينما رآه الكاهن لاحقاً، فربما كان الأفضل أن تتولى أنت الكلام.

ألقيت نظرة خاطفة على الكاهن الذي ارتدى ملابسه في عُجالة، وعلى المستأجر الجالس إلى جواره في ملابسه الرسمية، وضحكت على الذهول الذي رسمه استنتاج هولمز على وجهَيهما.

قال الكاهن: ربما يحسن أن أقول بضع كلمات في

البداية قبل أن تقرر: هل ستستمع إلى التفاصيل من السيد تريغنيس أولاً أم نسرع جميعاً في الحال إلى موقع هذا الأمر الغامض؟ حسناً، ربما كان من الأفضل أن أوضح إذن أن صديقنا قضى ليلة أمس في صحبة أخته بريندا وأخوَيه أوين

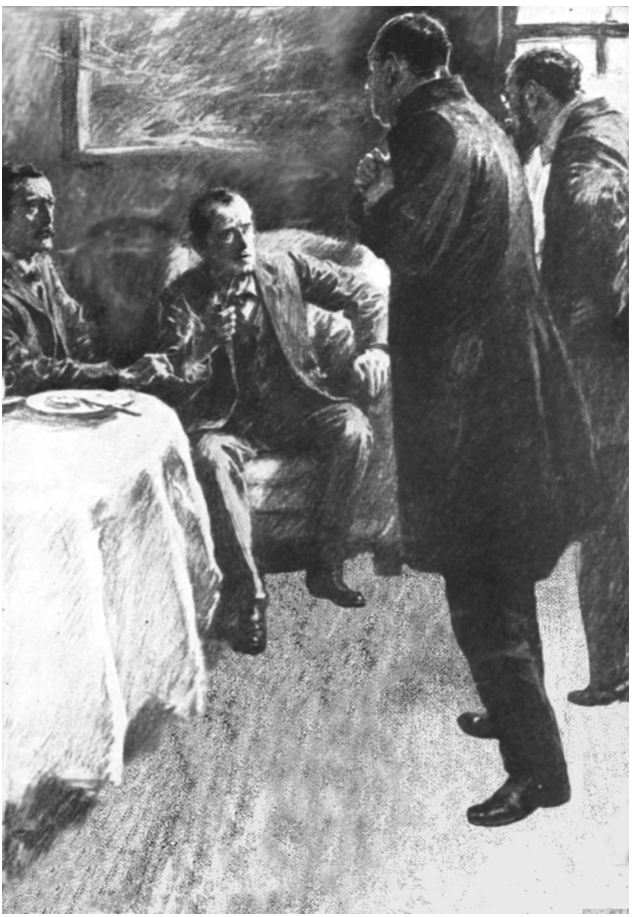

رسم تشارلز جِلبرت هَليدي (١٩١٠) Charles Gilbert Holiday (1910)

وجورج في منزلهم الذي يقع بالقرب من تقاطع الطريق الحجري القديم عند المستنقع. وقد تركهم بعد العاشرة بقليل وهم يلعبون الورق حول طاولة الأكل، وكانوا في أحسن حال بدنياً ومعنوياً. ولأنه معتاد على الاستيقاظ مبكراً فقد سار هذا الصباح قبل الإفطار في ذلك الاتجاه، حيث لحقَت به عربة الدكتور ريتشاردز الذي أخبره أنه استُدعي إلى بيت إخوته بشكل عاجل جداً. فركب مورتيمر معه بطبيعة الحال، وعندما وصلا إلى المنزل وجدا حالة شديدة الغرابة. كان أخواه وأخته متحلقين حول الطاولة تماماً كما تركهم وما تزال أوراق اللعب موزّعة أمامهم، وقد احترقت الشموع لآخرها، وكانت أخته تميل إلى الوراء في كرسيها ميتةً ومتصلبة كالحجر، بينما جلس الأخوان على جانبيها يضحكان ويصرخان ويغنّيان وقد فقدا رشدَهما تماماً. كما انطبعت ملامح الرعب الشديد على وجوه الثلاثة، الأخت الميتة والأخوين اللذين أصابهما الجنون، فقد تشنّجَت ملامحهم ذعراً بحيث صار النظر إليهم مخيفاً. لم يُعثر على أحد سواهم في المنزل، ما عدا السيدة بورتر، وهي الطباخة ومدبرة المنزل التي قالت إنها نامت بعمق ولم تسمع أي صوت خلال الليل. ولم تقع أي سرقة ولا اختلّ نظام البيت، ولم يُعرف أي تفسير لذلك الشيء المرعب الذي أخاف امرأة حتى الموت وأفقدَ رجلين قويين صوابَهما. هذا هو الوضع يا سيد هولمز باختصار، ولو ساعدتنا في توضيح الأمر ستكون قد قمت بعمل عظيم.

تمنيت لو استطعت -بطريقة ما- إقناع رفيقي بالعودة

إلى الجو الهادئ الذي كان هو الهدف الأساسي من رحلتنا، ولكن نظرة واحدة إلى ملامح وجهه الشديدة التركيز وحاجبيه المعقودين أوضحت لي أن ذلك الأمل كان واهياً، بل معدوماً تماماً.

جلس هولمز صامتاً لبعض الوقت مستغرقاً بالتفكير في تلك السلسلة من الأحداث الغريبة التي اخترقت حياتنا

رسم بيير جورج دَتْرياك (١٩٢٩) Pierre Georges Dutriac (1929)

الهادئة، ثم قال أخيراً: سأنظر في الأمر، فهذه القضية تبدو في ظاهرها ذات طبيعة استثنائية جداً. هل ذهبت إلى هناك بنفسك يا سيد راوندهي؟

- لا يا سيد هولمز، فعندما عاد السيد تريغنيس إلى منزلي وقَصّ عليّ ما حصل أسرعت لاستشارتك على الفور.

- كم يبعد منزلك عن المنزل الذي وقعت فيه هذه الأحداث المأساوية الغريبة؟

- نحو ميل باتجاه اليابسة.

- إذن سنذهب كلنا سيراً على الأقدام، ولكن قبل أن ننطلق سأسأل السيد مورتيمر تريغنيس بضعة أسئلة.

كان الرجل قد التزم الصمت طوال هذا الوقت، ولكني لاحظت أن انفعاله المكبوت فاق انفعالات الكاهن الظاهرة، فقد جلس بوجه شاحب مرهق وهو يضم يديه النحيلتين معاً بشكل عصبي، وقد استقرت نظراته القلقة على هولمز وأخذت شفتاه ترتجفان وهو يستمع إلى التجربة الرهيبة التي تعرضت لها عائلته، وبدا وكأن عينيه الداكنتين تعكسان بعضاً من ذلك المشهد المرعب.

قال بلهفة: اسأل ما تشاء يا سيد هولمز. من الصعب التحدث عن الأمر، ولكني سأجيب عن أي سؤال.

- أرجو أن تخبرني بتفاصيل ما حدث ليلة أمس.

- حسناً يا سيد هولمز. لقد تعشيت هناك كما أخبرك

القس، وبعد ذلك عرض أخي الأكبر جورج أن نلعب الورق، فبدأنا اللعب في نحو التاسعة، ثم تركتهم في العاشرة والربع. تركتهم جميعاً حول الطاولة وهم في أفضل حال ممكن.

- مَن الذي قام أوصلك إلى الباب عند خروجك من المنزل؟

- كانت السيدة بورتر قد نامت، فخرجت بنفسي وأغلقت باب الردهة خلفي، وكانت نافذة الغرفة التي يلعبون فيها مغلقة ولكن الستائر كانت مفتوحة. لم يحدث تغيير في حالة الباب أو النافذة هذا الصباح، ولم نجد ما يدل على دخول أي غريب إلى المنزل، ومع ذلك كان أخواي هناك وقد أصابهما الجنون من الرعب، في حين ماتت بريندا ذعراً ورأسها يميل على ذراع الكرسي. لن أستطيع أبداً أن أمسح صورة تلك الغرفة من خيالي ما حييت.

قال هولمز: إن الأحداث كما تقصها غريبة جداً بالتأكيد. هل أفهم من كلامك أنك لا تملك أي نظرية تفسّرها بها الأحداث؟

هتف مورتيمر تريغنيس: إنها أمور شيطانية يا سيد هولمز، أمور شيطانية لا تمتّ لهذا العالَم بصلة. لقد اجتاح شيء ما تلك الغرفة، شيء سلب إخوتي عقولهم، فهل يمكن لأيّ أمر بشري أن يتسبب في ذلك؟

قال هولمز: لو أن الأمر يتعدى حدود البشر فهو يفوق قدراتي بالتأكيد. ولكن لا بد لنا من استنفاد كل التفسيرات

الطبيعية قبل أن ننتقل إلى مثل تلك النظرية. حسناً يا سيد تريغنيس، هل أفترضُ أن الأمور بينك وبين إخوتك ليست على ما يرام، نظراً لأنهم يعيشون معاً فيما تعيش أنت وحدك بعيداً عنهم؟

- هذا هو واقع الأمر يا سيد هولمز، مع أن المسألة انتهت وصارت من الماضي. كنا نملك معاً منجماً لاستخراج القصدير في ريدروث، ثم بعناه لإحدى الشركات بمبلغ يكفي لنفقات حياتنا وتقاعَدنا عن العمل. لا أنكر نشوء بعض الخلافات حول طريقة تقسيم المال بيننا مما تسبب في سوء العلاقة لبعض الوقت، ولكن ذلك الأمر نُسي من بعد فتصالحنا وصرنا أفضل الأصدقاء.

- بالعودة إلى أحداث الليلة التي أمضيتموها معاً: هل تذكر أي شيء قد يُلقي بعض الضوء على المأساة؟ فكّر مليًّا يا سيد تريغنيس، فأي دليل قد يساعدنا.

- لا شيء على الإطلاق يا سيدي.

- هل كان إخوتك في حالتهم العادية؟

- كانوا في أفضل حال.

- هل يعاني أي منهم من مشكلة نفسية؟ هل أظهروا أي علامات تدل على ترقّبهم لخطر وشيك؟

- لا شيء من هذا القبيل.

- ليس لديك ما تضيفه إذن ليساعدني؟

فكر مورتيمر تريغنيس قليلاً بجِدّ وتركيز، ثم قال أخيراً: شيء واحد يخطر على بالي. جلسنا إلى الطاولة وظهري إلى النافذة، وجلس أخي جورج مقابلها لأنه كان شريكي في اللعب، وقد رأيته في إحدى المرات يحدق خلفي بحدّة، فالتَفَتُّ ونظرت أنا أيضاً. كانت الستائر مرفوعة والنافذة مغلقة، فلم أتمكن من رؤية أي شيء سوى أجمة الأشجار حول المنزل، وإن بدا لي للحظة خاطفة أنني رأيت شيئاً يتحرك وسطها، ولكني لا أستطيع تحديد ما إذا كان إنساناً أو حيواناً. شعرت بشيء هناك، وعندما سألت جورج أخبرني أنه شعر بنفس الشيء. هذا كل ما أستطيع قوله.

- ألم تتحرّيا الأمر؟

- لا، لم نمنحه أي اهتمام.

- لم يكن هناك إذن ما يُنذر بوقوع خطر حين تركتهم؟

- لا شيء على الإطلاق.

- كيف سمعت بالخبر في الصباح الباكر؟

- أنا أستيقظ دائماً مبكراً، وعادةً ما أتمشى قليلاً قبل الإفطار. لم أكد أبدأ نزهتي اليومية هذا الصباح حتى لحق بي الطبيب في عربته وأخبرني أن السيدة بورتر أرسلت إليه صبياً برسالة تستدعيه بشكل عاجل، فقفزت إلى جواره في العربة وانطلقنا معاً. عندما وصلنا إلى البيت نظرنا داخل تلك الغرفة الرهيبة. لا بد أن الشموع ونار المدفأة كانت قد انطفأت تماماً

قبل ساعات وأنهم جلسوا في الظلام حتى طلع الفجر. قال الطبيب إن بريندا ماتت منذ ست ساعات على الأقل، ولم نرَ أي أثر للعنف، مالت فقط على ذراع الكرسيّ وعلى وجهها تلك النظرة المليئة بالرعب. أما جورج وأوين فقد كانا يغنّيان بعض الأغاني المعروفة ويصدران أصواتاً غير مفهومة كقردين كبيرين! لم أتحمل رؤية ذلك المنظر الرهيب، أما الطبيب فقد شحب وجهه بشدّة وسقط على أحد الكراسي فيما بشبه الإغماء، وكاد يمرض هو الآخر.

قال هولمز وهو يقف ويحمل قبعته: إنه أمر غريب، غريب جداً. علينا الذهاب إلى موقع الحادثة دون تأخير. أعترف بأنني نادراً ما أجد قضية تطرح منذ النظرة الأولى مشكلة أكثر غرابة من هذه القضية.

* * *

لم تساعد الإجراءات التي قمنا بها ذلك اليوم على إنجاز أي تقدم في التحقيق، وإن كان ذلك الصباح قد تميّز بحادثة تركت أثراً سيئاً في أفكاري. كان الطريق الموصل إلى مكان المأساة ممراً ريفياً ضيقاً ملتوياً، وبينما كنا نمشي فيه سمعنا صوت عربة تسير باتجاهنا، فوقفنا جانباً لنفسح لها المجال للمرور. وبينما كانت تسير بمحاذاتنا لمحت عبر النافذة المغلقة وجهاً مشوّهاً بشكل رهيب يكشّر عن أسنانه وينظر إلينا بحدّة، وقد مرّ علينا بعينيه المحدقتين وتكشيرته الشريرة كطيف رهيب.

صاح مورتيمر تريغنيس وقد شحب وجهه بشدة: أخواي! سوف يأخذونهما إلى مصحّة الأمراض العقلية في هيلستون.

نظرنا برهبة إلى العربة السوداء التي مضت مقرقعةً في طريقها، ثم اتجهنا إلى المنزل المنكوب الذي لقي فيه الأخوان

رسم تشارلز جِلبرت هَليدي (١٩١٠) Charles Gilbert Holiday (1910)

مصيرهما الغريب.

كان مسكناً واسعاً مشرقاً هو أقرب إلى الدار الكبيرة منه إلى الكوخ، وله حديقة كبيرة امتلأت في ذلك الوقت بأزهار الربيع بسبب جوّ كورنوول المناسب. وكانت نافذة غرفة الجلوس تطلّ على تلك الحديقة، ومنها -حسب توقع مورتيمر- جاء ذلك الشيء الشرير الذي أرعبهم بقوة أفقدتهم عقولهم في لحظة.

مشى هولمز ببطء بين أحواض الزهور وهو غارق في التفكير، وأذكر أنه تعثّر بدلو ممتلئ بالماء فانسكبت محتوياته على أقدامنا وعلى ممر الحديقة. وفي داخل المنزل قابلتنا مدبرة المنزل العجوز السيدة بورتر التي كانت تلبّي احتياجات العائلة بمساعدة خادمة شابة، وقد أجابت بلا تردد على أسئلة هولمز كلها. لم تسمع شيئاً خلال الليل، وكان مخدوموها في حالة نفسية ممتازة مؤخراً، ولم يسبق أن رأتهم في حال أكثر سعادة وبهجة. وقد فقدت وعيها رعباً حين دخلت الغرفة صباحاً ورأتهم حول الطاولة في تلك الحالة المروّعة، وعندما استعادت وعيها فتحت النافذة ليدخل هواء الصباح إلى الغرفة، ثم أسرعت تجري في الممر وأرسلت صبياً إلى الطبيب تستدعيه. كانت السيدة الميتة في سريرها في الطابق العلوي لو أردنا رؤيتها، وقد تطلب الأمر أربعة من الرجال الأشداء ليتمكنوا من إدخال الشقيقين إلى عربة المصحة العقلية. ثم قالت أخيراً إنها لا تنوي البقاء في ذلك المنزل يوماً آخر، وسوف تلحق بعائلتها بعد ظهر ذلك اليوم في سينت إيفيز.

صعدنا الدرج ورأينا السيدة. لا بد أن الآنسة بريندا تريغنيس كانت جميلة جداً في شبابها، فمع أنها صارت في منتصف العمر إلا أن وجهها الداكن المرسوم بدقة بدا جميلاً حتى وهي ميتة، ولكنه حمل أيضاً آثار الرعب الذي كان آخر مشاعرها الإنسانية قبل الموت.

ثم نزلنا إلى غرفة الجلوس التي وقعت فيها هذه المأساة الغريبة. كان رماد الخشب المحترق أثناء الليل ما يزال في المدفأة، وعلى الطاولة كانت الشموع الأربع التي سال الشمع منها في أخاديد واشتعل فتيلها حتى انتهى. وفيما عدا الكراسي التي أُزيحت إلى الخلف حتى التصقت بالجدران بقي كل شيء كما كان في الليلة الماضية. راح هولمز يتجول في الغرفة

رسم تشارلز جِلبرت هَليدي (١٩١٠) Charles Gilbert Holiday (1910)

بخطوات خفيفة سريعة، وجلس في عدّة كراسي، ثم سحبها وأعادها إلى موقعها الأصلي ليرى ما هي المساحة الظاهرة من الحديقة، ثم فحص الأرض والسقف والمدفأة، ولكنني لم أرَه يزمّ شفتيه ولم ألمح شيئاً من ذلك البريق المفاجئ في عينيه، وهي العلامات التي تدلني على أنه رأى ومضة نور وسط ذلك الغموض المطلق.

سأل مرة قائلاً: لماذا أُشعلت المدفأة؟ هل من المعتاد أن يشعلوها في مثل هذه الغرفة الصغيرة وفي ليلة ربيعية كهذه؟

شرح له مورتيمر أن الليلة الماضية كانت باردة ورطبة فأشعلوا المدفأة بعد قدومه، ثم سأله قائلاً: ما الذي تنوي فعله الآن يا سيد هولمز؟

قال صديقي وهو يضع يده على ذراعي: بعد إذنكم يا سادة، سنعود الآن إلى كوخنا لأنني لا أتوقع أن نعثر على أي عنصر جديد هنا. سأفكر في الأمر من كل جوانبه يا سيد تريغنيس، ولو خطر لي أي خاطر سأتصل بك وبالقس بكل تأكيد. حتى ذلك الوقت أتمنى لكما صباحاً طيباً.

* * *

لم يَمضِ وقت طويل بعد عودتنا إلى كوخنا حتى كسر هولمز صمته التام الذي أمضاه مستغرقاً في التفكير. جلس في أريكته ووجهه المرهق محاط بدوامة دخان الغليون الذي يدخنه، وقد ضم حاجبيه الداكنين وعقد جبهته وبدت عيناه بلا تعبير.

وأخيراً وضع غليونه جانباً وهبّ واقفاً على قدميه وقال: لا فائدة يا واطسون. فلنمشِ على طول المنحدرات ونبحث عن سهام من حجر الصوّان، وسوف يكون عثورنا عليها أسهل من العثور على حل لهذا اللغز! إن محاولة التفكير في الأمر دون العناصر الكافية لا يفيد. ليس علينا إلا التمتع بهواء البحر يا واطسون، وأشعة الشمس والصبر...

فيما كنا نسير عند حافة المنحدرات معاً تابع كلامه قائلاً: فلنحدِّدْ موقفنا بهدوء يا واطسون، دعنا نستوعب المعلومات القليلة التي نعرفها حتى نضعها في مكانها الصحيح عندما نعثر على معلومات جديدة. أنا أسلّم منذ البداية أن أحداً منا ليس مستعداً لإدخال الشياطين في أمور البشر، فلنبدأ بحذف هذا الأمر من عقولنا تماماً. ممتاز، يبقى عندنا ثلاثة أشخاص أصيبوا بأمر سيّئ بواسطة قوة بشرية، سواء فعلَت تلك القوة ذلك بشكل إرادي أو لاإرادي.

هكذا نبني بحثنا على أساس صلب. والآن، متى حدث الأمر؟ إذا سلّمنا أن ما قاله السيد مورتيمر صحيح ودقيق فمعناه أن الأمر وقع بعد مغادرته مباشرة. وافتراض أن الأمر وقع بعد خروجه بدقائق قليلة نقطة مهمة للغاية، لأن أوراق اللعب كانت ما تزال على الطاولة، وقد تجاوزوا موعد نومهم بالفعل، ومع ذلك فإنهم لم يغيروا أماكنهم ولم يدفعوا كراسيهم إلى الخلف. وإذن فأنا أكرر: لقد وقعت هذه الواقعة بعد مغادرته مباشرة ولم تقع بعد الساعة الحادية عشرة من ليلة أمس.

خطوتنا التالية هي أن نتأكد -قدر الإمكان- من تحركات السيد مورتيمر بعد مغادرته المكان. لا صعوبة في الأمر ولا يبدو أن فيه ما يثير الشك. وبما أنك تعرف أسلوبي في التحقيق فلا بد أنك أدركت أن تعثّري بشكل أخرق بدلو الماء كان وسيلة حصلتُ بها على طبعة واضحة لأثر قدمه، وهو الأمر الذي لم يكن ممكناً دون استخدامي لتلك الطريقة. لقد ظهر أثر قدمه بشكل رائع على الممر الرملي المبلل، وبما أن ليلة أمس كانت ممطرة أيضاً فلم يكن الأمر صعباً، فقد حصلت على عيّنة من الأثر الذي مكّنني من اقتفاء أثره من بين الآخرين. تتبعت تحركاته وظهر لي أنه مشى بسرعة باتجاه بيت الكاهن.

لو أن مورتيمر تريغنيس اختفى من المكان ثم نجح شخصٌ ما من خارج المنزل في إثارة رعب لاعبي الورق فكيف سنصف ذلك الشخص؟ كيف استطاع إثارة مثل هذا الرعب المنطبع على وجوههم؟ نستطيع أن نُسقط السيدة بورتر من حساباتنا، فمن الواضح أنها غير مؤذية. هل يوجد أي دليل يدلنا على أن شخصاً ما قد تسلل إلى النافذة المطلّة على الحديقة وقدّم -بطريقة ما- مثلَ هذا المؤثر المروّع الذي دفع مَن رآه إلى الجنون؟

التلميح الوحيد الذي يقودنا في هذا الاتجاه جاء من مورتيمر نفسه، حين قال إن أخاه تحدث عن رؤيته لحركة ما في الحديقة. وهذا أمر غريب، لأن الليلة كانت ممطرة وغائمة ومعتمة، فمَن يعتزم تخويف هؤلاء الناس سيلزمه أن يلصق وجهه بزجاج النافذة حتى يتمكنوا من رؤيته. ثم إن هناك

خارج تلك النافذة حوضاً من الزهور عرضه متر، وليس فيه أي أثر لقدم. وإذن فمن الصعب تصوّرُ كيف استطاع شخص في الخارج أن يُحدث مثل هذا الأثر الرهيب على المجموعة، كما لا نعرف أي دافع يمكن أن يدفع أي شخص لتنفيذ عمل بمثل هذه الدقة والغرابة. أترى الصعوبات التي تواجهنا يا واطسون؟

أجبته بصدق: إنها صعوبات كثيرة.

قال هولمز: ومع ذلك فقد نستطيع إثبات أنها غير مستعصية لو حصلنا على بعض المعلومات الإضافية. قد لا تجد بين القضايا الكثيرة التي تحتفظ بها في سجلاتك قضية تقترب في غموضها من هذه القضية، أمّا الآن فعلينا أن نتركها جانباً حتى تتوفر لنا بعض المعلومات الدقيقة، ونُكرّس ما بقي من فترة الصباح في ملاحقة آثار إنسان العصر الحجري الحديث.

* * *

ربما أشرت من قبل إلى قدرة صديقي الهائلة على فصل عقله عمّا حوله، ولكن هذه الصفة فيه لم تُثِر عجبي قط كما حدث في ذلك الصباح الربيعي، عندما مضى يحدثني لمدة ساعتين عن السكان القدماء ورؤوس السهام وقطع الفخار، تحدّثَ بهدوء شديد وكأنه ليس مَعنياً بالتحقيق في ذلك اللغز الغريب المشؤوم.

لم نفكر في القضية ثانية حتى رجعنا إلى كوخنا بعد

منتصف النهار فوجدنا زائراً ينتظرنا. لم يكن أيّ منا بحاجة لمن يخبرنا بهويّة الزائر، فضخامته وأنفه المعقوف كالصقر واللحية ذات الأطراف الذهبية وشعره الأشيب الذي كاد يلمس سقف كوخنا بسبب قامته الطويلة، كانت هذه كلها علامات معروفة في أوروبا وأفريقيا على حد سواء. إنه الدكتور ليون ستيرنديل، المستكشف الشهير وصيّاد الأسود العظيم.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com